أ. جون ل. اسبوزيتو

الملف

نظرة غربية للثورة الاسلامية الايرانية(*)

عـاود الإسـلام الظهـور باعتـباره قـوة عالمـية محـتملة خـلال السـبعينات والثمانيـنات مـن القـرن العشـرين، وكـان مـدى الـتجديد الإسلامي ومجاله على اتسـاع العـالم كلـه، بحيـث ضـم معظـم العـالم الإسـلامي مـن السـودان حـتى إندونيسـيا. إذ إن رؤسـاء الحكومـات الإسـلامية وجماعـات المعارضـة علـى السواء لجأوا إلـى الديـن باطراد طلباً للشرعية ولحشد التأييد الشعبي. فقد حاز النشطاء الإسـلاميون مناصـب وزاريـة فـي الأردن والسـودان وإيـران ومالـيزيا وباكسـتان. كمـا أن التنظـيمات الإسـلامية تشـكل الأحـزاب المعارضـة الرئيسـية فـي مصـر وتونـس والجزائـر والمغـرب والضـفة الغربـية وغـزة وإندونيسـيا. وحيـثما يسمح لهـم، فـإنهم يشـاركون فـي الانـتخابات ويدخلون البـرلمان والبلديات. وقد كان الإسـلام مكونـاً عضـويا مهمـاً فـي حـركات النضـال الوطنـية وفـي حـركات المقاومـة فـي أفغانسـتان، والجمهوريـات الإسـلامية فـي الاتحـاد السـوفيتي

*- مقتطفات من كتاب «التهديد الاسلامي - خرافة ام حقيقة» لمؤلفه جون ل. إسبوزيتو. جئنا بها لما فيها من الاهمية والاعتراف الشهير بالتأثير التغييري للصحوة الاسلامية في عالمنا المعاصر مع مالنا من تحفظ على كثير مما جاء في هذا الكتاب .

السابق بوسط آسيا وكشمير، وفي سياسات لبنان والهند وتايلند والصين والفليبين، تجاه بعض الجماعات على أرضها.

وقد حُسبت الحكومات ذات التوجه الإسلامي من بين أهم حلفاء أمريكا (العربية السعودية وباكستان) وألد أعدائها (ليبيا وإيران). وتنظيمات النشطاء الإسلاميين تغطي قطاعاً يمتد من أولئك الذين يعملون من داخل النظام، مثل الجماعة الإسلامية في مصر (المعروفة عموماً بالتكفير والهجرة) بالنظم السياسية القائمة.

ومع ذلك فإن الحديث عن الإحياء الإسلامي المعاصر يمكن أن يكون مخادعاً إذا كان هذا يعني أن الإسلام قد اختفى على نحو ما من العالم الإسلامي. ومن الاصوب أن نرى أن التجديد أو الإحياء الإسلامي قد أدى إلى دخول الإسلام بقدر أكبر في السياسات والمجتمع الإسلامي. ومن ثم فإن ماكان يبدو من قبل قوة مهمشة في الحياة الإسلامية العامة قد عاود الظهور في السبعينات - بشكل درامي غالباً - باعتباره حقيقة سياسية اجتماعية تنبض بالعافية. وعكس إحياء الإسلام في السياسات الإسلامية حركة تجديد دينية متنامية سواء كانت في الحياة الخاصة أو العامة سوف تكتسح معظم العالم الإسلامي، وسيكون لها تأثير هائل على الغرب في مجال السياسات العالمية [1].

ولقد اختلفت الأشكال التي أخذها الإحياء الإسلامي بشكل لامتناه من بلد إلى آخر. وعلى أية حال، هناك موضوعات رئيسية متكررة: أن النظم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية القائمة قد فشلت؛ حيث التنافر وأحيانا رفض الغرب، والبحث عن هوية وقدر أكبر من الأصالة، ثم القناعة بأن السلام أيديولوجية تتسم بالاكتفاء الذاتي للدولة والمجتمع، وهو بديل قوي للوطنية والاشتراكية والرأسمالية العالمية [2].

وعلى الصعيد السياسي، تم اكتشاف أن الوطنية العلمانية لا تتسم بالكفاءة. فلا الوطنية الليبرالية ولا القومية العربية - الاشتراكية قد أنجزت وعودها. وتبدو الحكومات في البلاد الإسلامية أقل اهتماماً ونجاحاً في تأسيس شرعيتها السياسية وخلق أيديولوجية للوحدة الوطنية منها في فرض واستمرار الحكم الفردي. وكان العالم الإسلامي مايزال محكوماً بالملوك والحكام العسكريين أو الذين خرجوا من صفوف الجيش، وكانت الأحزاب السياسية ممنوعة أو مقيدة، وغالباً ماكانت الانتخابات تقع فريسة للتزوير. أما النظم البرلمانية للحكومات والأحزاب السياسية فقد قامت على حساب حكام تعتمد شرعيتهم وأمنهم على العسكريين الموالين والشرطة السرية. وكثيرون منهم تم تنصيبهم بفضل حكومات أجنبية وشركات متعددة الجنسيات يعتمدون عليها(٣).

وأخيرا، فإن الجهل الأمريكي بالإسلام والشرق الأوسط والعداوة الأمريكية تجاههما غالباً ما انتقدت باعتبارها عقلية «صليبية مسيحية» واقعة تحت تأثير الرؤية الاستشراقية والصهيونية، وهو السبب في تضليل سياسات الولايات المتحدة على الصعيد السياسي والعسكري: مثل دعم شاه إيران «غير الإسلامي»، والتمويل العسكري والاقتصادي الضخم لإسرائيل، ومساندة الحكومة المسيحية المسيطرة وغير الشعبية في لبنان.

هذه الأزمات وحالات الفشل غرست شعوراً إسلامياً بالدونية، هو نتاج قرون من السيادة الأوروبية الاستعمارية، التي خلفت تراثاً من الإعجاب بالغرب وقوته وعلمه وتكنولوجيته، وكذلك إدانة للسيطرة الغربية والاستغلال. وقد وقفت حالات فشل التجارب الحديثة في تناقض صارخ مع نموذج إسلامي يربط بين إيمان الجماعة المسلمة والنجاح الدنيوي، على نحو ما تشهد ذاكرة التاريخ في

الماضي؛ عندما كان الإسلام قوة عالمية مسيطرة وحضارة عالمية سائدة[٤].

وليس هناك حدث كشف عن قوة الإحياء الإسلامي مثلما فعلت الثورة الإيرانية ١٩٧٨-١٩٧٩م. فبالنسبة لكثيرين في العالم الإسلامي، صار مالا يرد على الفكر حقيقة واقعة، ذلك أن نظام الشاه القوي الحديث، ذا الاتجاه الغربي، قد انهار. وكانت تلك إيران الثرية بالبترول والتي استخدمت ثروتها في بناء أفضل قوات مسلحة بالشرق الأوسط (بعد إسرائيل) ولكي تمول برنامج تحديث طموح، عرف باسم الثورة البيضاء للشاه. وقد حكم الشاه بمساعدة نخب ومستشارين تم تدريبهم في الغرب. وإيران دولة كانت الولايات المتحدة تعتبرها الحليف الأكثر استقراراً في العالم. والحقيقة أن ثورة فعالة ناجحة قامت ضده وضد الغرب باسم الإسلام، وقد نظمت مجموعات متباعدة واعتمدت على شبكة من المساجد التي يقودها الملالي (جمع مُلا أي شيخ) في الحصول على التأييد، قد وَلَّدت شعوراً بالغبطة والسعادة لدى الكثيرين في العالم الإسلامي، وأقنعت النشطاء الإسلاميين أن تلك هي دروس النجاح التي يمكن التعلم منها. فالقوة والنصر سيكون حليفاً لأولئك الذين يسعون إلى التغيير باسم الإسلام، مهما كانت العقبات وأيا كانت قوة الأنظمة.

وبالنسبة للكثيرين في العالم الإسلامي الأوسع، كانت نجاحات السبعينيات صدى لمنظور مثالي عن الإسلام الباكر، أي النموذج الذي نجده في عصر النبي محمد(ص)، العصر الذهبي للإسلام. ذلك أن نجاح محمد(ص) في توحيد القبائل العربية المتنافرة تحت راية الإسلام، ثم بناء دولة إسلامية ومجتمع إسلامي سادت فيه العدالة الاجتماعية، ثم التوسع الإسلامي الباكر الفذ، كلها كانت أحداثا أساسية ينبغي تذكرها، حينما بدا أن الثورة الإيرانية قد حققتها بنموذجها، وهي حقائق يجب أن يترسم خطاها أولئك الذين يدينون

بالإسلام. وهنا تكمن الجاذبية الأساسية للثورة الإيرانية بالنسبة لكثيرين من المسلمين، من السنة والشيعة على السواء. إذ إن إيران قدمت المثال الأول لثورة إسلامية حديثة، ثورة ضد عدم التدين والقهر والظلم، ولقيت دعوة آية الله الخميني إلى ثورة إسلامية استجابة لدى الكثيرين الذين ربطوا بين دعوته ضد الإمبرالية وإدانته للنظم الفاشلة المتسلطة الظالمة وبين رؤيته لمجتمع أخلاقي عادل.

ألهب نجاح الثورة الإيرانية خيال العالم الإسلامي وجعل الحكومات الإسلامية ترتعد خوفاً، إذ إن إيران مابعد الثورة أثرت على النشطاء الإسلاميين في جميع أرجاء الدنيا. وفي الفترة التي أعقبت الثورة، جاءت وفود الزعماء الإسلاميين من شمال إفريقيا والشرق الأوسط، وجنوب شرق آسيا إلى طهران لتهنئة الخميني، فالتنظيمات السنية والشيعية على السواء، والمنتشرة من مصر (حيث حركة الشباب الماليزي ABIM، والجماعة العسكرية PAS) كانت تنشد الإلهام من نموذج ايران. وقدمت الثورة الإيرانية دروسا «لإيقاظ المسلمين ولاستعادة ثقتهم في دينهم وإيمانهم به، بحيث يتولون قيادة الإنسانية مرة أخرى ويضعون العالم تحت حماية الحضارة الإسلامية الراقية» وكانت الثورة الإيرانية بمثابة عامل تذكرة بأن الإسلام وسيلة شاملة للحياة ينظم أحوال العبادة والمجتمع» هو دين ودولة، تعليم وأخلاق، عبادة وجهاد»[٥].

وثمة توجه إسلامي أكثر وضوحاً نجده الآن بين الطبقات الوسطى والدنيا، المتعلمين وغير المتعلمين، المهنيين والعمال، الشباب والمسنين، الرجال والنساء والأطفال. وظهر جيل جديد من الزعماء ذوي التوجه الإسلامي في مصر والسودان وتونس والأردن وإيران وماليزيا والكويت والعربية السعودية وباكستان. وقد صار النشطاء الإسلاميون جزءاً معتاداً من العملية السياسية،

يشاركون في الانتخابات المحلية والوطنية، وأحرزوا نصراً مؤزراً في انتخابات الجزائر البلدية، وبرزوا باعتبارهم أحزابا أو مجموعات المعارضة الرئيسية في مصر وتونس والأردن، ودخلوا الوزراة في السودان والأردن وباكستان وإيران وماليزيا[٦].

ولقد شكّل نجاح الإسلام وتوسعه الباكر تحدياً على المستوى اللاهوتي، والسياسي والثقافي كما شكل تهديدا للغرب المسيحي. وكل من الإسلام والمسيحية يمتلك شعورا برسالة ومهمة عالمية كان محتماً أن تؤدي إلى المواجهة بدلا من التعاون بينهما بالنظر إلى أحداث الماضي. وبسبب تاريخ طويل غالباً ما كان العالم المسيحي خلاله يسب النبي والإسلام الذي كانت صورته مشوهة جدا بالنسبة لهم، وبسبب تاريخ حديث كان الإسلام خلاله يوضع على قدم المساواة مع الإرهاب والتطرف، فإن بعض الفهم للإسلام يكون ضرورياً قبل أن نتحرك لدراسة العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي. وعلاوة على ذلك، فإن بعض الوعي بالقرآن، والنبي والفترة الإسلامية الباكرة أمر لا غنى عنه لفهم الإسلام، طالما أنهم استمروا في طرح نموذج يقتدي به المسلمون والحركات الإسلامية في كل عصر. وبينما نحن نناضل لكي نتخطى النماذج النمطية والميل إلى قصر تصوراتنا عن الإسلام والمسلمين في المتظاهرين الذين يهتفون «الموت لأمريكا» أو «الجهاد ضد الكفار»، فمن المهم أن نتذكر أن الرجال والنساء من كل عرق ولون، وطبقة اجتماعية، وخلفية تعليمية عبر العالم وخلال العصور قد وجدوا في الإسلام عقيدة تغذي حياتهم بالأمل وتحولها، وعقيدة تقدم إحساساً بالأمة، والتضامن والسلام[٧].

وعلى مرّ الزمن تمكن النبي محمد (ص)من تدعيم سلطته وقوته، ودخلت القبائل الوثنية في الإسلام. وأخيراً صار محمد(ص) نبياً وقائداً للأمة في آن.

ولـم يعـرف الإسـلام الـتفريق الحاد بين ماهو مقدس وماهو دنيوي، أو بين الدين والمجـتمع، والفـرد والأمـة. وتوجـه الإسـلام تمـت صـياغته في رمز تجسده الآية القرآنـية المـتواترة (أطـيعوا الله ورسـوله). إذ إن الوحـي الـذي تلقـاه النبـي وبلّغـه كـان هاديـاً مـن ناحـية، واسـتجابة، مـن ناحـية أخـرى، لديناميات تاريخ الأمة. وفـي الوقـت نفسـه كـان النبـي يـرعى أحـوال الأمـة ويحكمهـا، باعتـباره زعيمها السياسـي والعسـكري، وقاضـياً ومُصـلحاً اجتماعياً. فقد كان الدين مكوناً أصيلاً فـي الـزعامة والحـياة ونسـيج المجـتمع، يقـدم أخلاقـيات للعـبادة (فـروض الله) والحـياة الاجـتماعية (فروض الجماعة). وإذا كان الإسلام يعني الخضوع لمشيئة الله، فالمسـلم هـو الشـخص الـذي يسـلم وجهـه لله، ويتـبع مشـيئة الله ويحولهـا إلى واقع في حياته الفردية وحياة الأمة أيضا.

وقـد عكسـت المديـنة المـنورة العلاقـة الـتامة بين الدين والدولة في الإسلام، وهـو نمـوذج تـرك تأثـيره علـى تطـور الأمـة الإسلامية آنذاك وفي الوقت الحاضر علـى السـواء. إذ كانـت الدولـة تحـت قيادة محمد، نـبي الله، يهديها الوحي الإلهي. وقـام النبـي محمد بأدوار تنفيذية وتشريعية وقضائية باعتباره رأس الدولة. فقد كـان يشـرف علـى الشؤون المحلـية والخارجية وعلى النواحي العسكرية وجمع الضـرائب [الـزكاة] وفـض المـنازعات.وكانـت الأمة الإسلامية مُلزمة بأن تتبع كلمـة الله وحكمـه بالإضـافة إلـى نشـرهما. وقـد جمـع النبـي محمـد بيـن العمل الدبلوماسـي والعمـل العسـكري. وعـاد منتصـراً إلـى مكـة وعـند وفاتـه سـنة ٦٣٢م كـان قد جمع بين القبائل المتنافرة في شبه الجزيرة العربية.

لقـد جـاء محمـد بمـا هـو أكـثر مـن مجـرد تجميع أو تفسير للعادات والأفكار الديـنية الموجـودة (عـربية ويهـودية ومسـيحية)' إذ إنه صاغ طرازاً جديداً للنظام والأمـة، أمـة ديـنية وسياسـية تضـرب بجذورها وتتوحد مع رؤية ديـنية أو رابطة

دينية. فقد تم قبول الأفكار والمؤسسات القديمة وتحويلها في ضوء المعايير الإسلامية، عندما تمت صياغة طراز جديد لمعنى الهوية والتضامن والأمة والسلطة(٨).

«إن الصيحة التي تخرج من قلب المؤمن تتغلب على كل شيء، حتى البيت الأبيض.. إن هذه الموجة قد انتشرت بالفعل في جميع أنحاء الدنيا، والعالم يتحرر الآن من القهر الذي كان خاضعا له» آية الله الخميني.

على مدى أكثر من سنوات عشر كانت إيران تجسد التهديد الإسلامي، كما كان آية الله الخميني رمز الإسلام الثوري. وإذا كان الخميني قد أدان الغرب - والولايات المتحدة بصفة خاصة - باعتباره الشيطان الأكبر، فإنه كان في نظر الكثيرين في الغرب بمثابة قسيس من العصور الوسطى وخطرا يتهدد الشرق الأوسط والغرب. وتكشف التصريحات الرئاسية والموسيقى الشعبية ولوحات الإعلانات عن أن الخميني سرعان ماصار هو الرجل الذي يحب الكثير من الأمريكيين أن يكرهوه.

وبالنسبة للغرب، الذي كان مقتنعا باستقرار شاه إيران، كان سقوط الشاه أمرا غير وارد، وصدمة زاد من وقعها المنتصرون، ملالي إيران، إذ كان محمد رضا بهلوي قد حكم على مدى مايزيد على ثلاثين سنة (١٩٤١-١٩٧٩م). وكان ينظر إليه في الغرب، شأنه شأن أنور السادات، باعتباره حليفا مستنيرا، ورئيسا لدولة حديثة. وكان بهلوي، مثل السادات، يتحدث الإنجليزية، ويرتدي ملابس أنيقة على الطراز الغربي، ويظهر على شاشة التليفزيون الأمريكي، ويتحدث في مقابلات تلفزيونية مع أمثال باربرا ولترز (أي أنهما كانا «مثلنا»). ومع هذا شهد العالم في سنة ١٩٧١ احتفال إيران بالذكرى الألفين وخمسمائة لقيام الملكية الفارسية. وأمام جمهور من زعماء العالم، بما فيهم نائب رئيس

الولايات المتحدة ، توج الشاه نفسه إمبراطوراً على إيران. وفي ظل حكم الشاه استخدمت عائدات البترول في برنامج تحديث طموح، الثورة البيضاء، التي كان هدفها تحويل إيران إلى دولة حديثة بحلول القرن الحادي والعشرين. وكانت إيران تمتلك أحسن قوات عسكرية مجهزة في الشرق الأوسط وتتمتع بعلاقات وطيدة مع الولايات المتحدة وأوربا. وفكرة أن هذا الشاه يمكن أن يطاح به لم تكن واردة، وأن السلالة البهلوية سوف تنهار على يد ثورة يقودها آية الله الملتحي المنفي ويوجهها باسم الإسلام، لم تكن مستوعَبَة.

الإسلام والقومية والدولة

على الرغم من الصورة الشائعة في الغرب عن الإسلام الشيعي باعتباره ديانة ثورة واستشهاد، فإن علاقته بالدولة في إيران على مدى التاريخ الإسلامي كانت علاقة معاكسة، وذات وجوه متعددة؛ إذ إن الإسلام في إيران يشتمل على العديد من الرؤى والاتجاهات المختلفة وكان قادرا على تحقيق مستويات كثيرة من مستويات الخطاب والتفسير. والواقع، أنه ما أن أطاحت ثورة ١٩٧٨-١٩٧٩ بالشاه من على عرشه وانقشع الدخان، حتى ظهر التباين داخل مجتمع إيران الشيعي على السطح متمثلا في الجدل والصراع.

كان الدين والدولة في إيران قد تداخلا سويا حتى منذ تأسُّس الاسرة الصفوية (١٥٠١-١٧٣٢)، عندما أعلن أن المذهب الشيعي هو مذهب الدولة. وزعم ملوك إيران أنهم يحكمون في غيبة الإمام الثاني عشر، الذي كان قد اختفى سنة ٨٧٤ والذي يعتقد الشيعة المخلصون بأنه سوف يعود في المستقبل ليقضي على الطغيان، ويقود الأمة في عصر جديد من العدالة. وقد برهن رجال الدين على أنهم أبعد مايكونون عن الثورة غالب الأحيان. وتقبلوا ضرورة الحكم

الدنيوي واقعا، وإن لم يتقبلوها من ناحية المذهب والنظرية. وقد اختلفت علاقة رجال الدين بالدولة في التاريخ الإيراني مابين الحماية والرعاية الملكية إلى المعارضة، تبعا للسياق الاجتماعي السياسي. وغالبا ماكان الحكام يسيطرون على سلطتهم ويحدّون منها. وفي أوقات أخرى كانوا يقودون حركات المعارضة أو يسهمون فيها. وبينما أحكم الصفويون سيطرتهم على رجال الدين، فإن خلفاءهم من أسرة قاجار الأقل قوة، (١٧٩٤-١٩٢٥) واجهوا مؤسسة دينية أكثر استقلالا وإصرارا، لم يكن رجالها يخافون من النزول إلى الشوارع لمعارضة الحكم.

وفي مناسبتين أكثر حداثة - احتجاج الدخان (ثورة التمباك) (١٨٩١ - ١٨٩٢م)، والثورة الدستورية سنة (١٩٠٥-١٩١١) - لعب الإسلام ورجال الدين دورا معارضا مهما في ظهور القومية الإيرانية الحديثة. وإذ كانوا قد أحبطوا من قبل محاولات الحكومة لبيع امتيازات للأوربيين لتطوير البنوك والسكك الحديد والتعدين، فإن الزعماء الدينيين والعلمانيين انضموا سويا في حركات احتجاج لحماية المصالح الوطنية الإيرانية أولا ثم لتحديد سلطة الشاه دستوريا. وكان احتجاج الدخان ردا على محاولة ناصر الدين شاه بيع امتياز الدخان (التمباك) إلى شركة بريطانية (وبذلك يخلق احتكارا) . وأباحت فتوى شرعية مقاطعة وطنية شاملة قادها الزعماء الدينيون والتجار. كما استخدمت الثورة الدستورية الرموز الدينية ورجال الدين والمساجد التي كانت بمثابة مراكز للتنظيم السياسي، لكي تصعّد من حركة احتجاج شعبي سعى من خلالها القوميون الإيرانيون إلى أن يحدوا دستوريا من استبداد الملكية وإساءتها استخدام السلطة.

وتحت الحكم البهلوي (١٩٢٥-١٩٧٨م) أحكمت السيطرة على الدين وبقي رجال

الدين خاملين وغير مسيسين. وكان كل من رضا شاه بهلوي (١٩٢٥- ١٩٤١)م وابنه محمد رضا شاه بهلوي (١٩٤١-١٩٧٨م) يُحْكم قبضته على الدين مازجا بين انتخاب وفرض المؤسسة الدينية. وكان زعماء إيران الدينيون من ناحيتهم يفضلون السكون على الفعل السياسي، والنظام على الفوضى الأهلية، والحماية المحدودة على الاضطهاد. وقد أدى إنشاء نظام مدرسي علماني حديث ونظام قانوني قائم على أسس غربية، فضلا عن سيطرة الوزراء الحكوميين على العديد من المؤسسات الإسلامية، إلى تقليص قوة رجال الدين بشكل حاد.

وقد برهن التأثير الاجتماعي الأوسع لبرامج محمد رضا شاه بهلوي التحديثية، الثورة البيضاء، الذي تأثر بالغرب مثل إصلاحاته التعليمية والقانونية، أنه سلاح ذو حدين. وعلى الرغم من الإنجازات في مجال التعليم والصحة والإصلاح الزراعي، فإن فوائد الإصلاحات ذهبت بطريقة غير متوازنة إلى مجموعة صغيرة متنامية من النخب الحضرية الحديثة. وكانت أضواء المدن التي تم تحديثها وبريقها يحجبان الأحوال الحقيقية للفقراء في الحضر وجماهير القرى في إيران. وبينما ازدهرت أقلية، كانت البلاد التي حققت اكتفاء ذاتيا زراعيا من قبل تنفق أكثر من بليون دولار على الواردات. وصار أولئك الذين يصبون من القرى في المدن توقعا لحياة أفضل، مع افتقارهم لمهارات العمل المطلوبة، سكانا عاطلين في أحياء حضرية عشوائية مكتظة ومزدحمة بالسكان: «وبالنسبة لهؤلاء الملايين، الذي أجبر معظمهم على النزوح من القرى في مدن العشش، لم تؤد طفرة البترول إلى نهاية الفقر، وإنما أدت إلى تحديثه فقط».

وعانى كل من طبقات التجار التقليدية (بازاري) والطبقات الدينية، نتيجة لبرنامج بهلوي التحديثي ذي الاتجاه الغربي، بشكل أثر على حياتهم من

الملابس والتعليم والقانون إلى إصلاح الأرض والتجارة. ووجد البازاري ورجال الدين أن توجه إيران واعتمادها على الغرب خطر على مكانتهم ومصالحهم الاقتصادية، وقيمهم الدينية الثقافية. وقد ألزمت قوانين الملابس التي أصدرها رضاشاه في العشرينيات والثلاثينيات، الرجال بارتداء الملابس الغربية، وحرمت الحجاب، وقيدت ارتداء ملابس رجال الدين، ثم تبعها التغريب الظاهري لنخب إيران الحديثة ثم تغريب الكثير من المراكز الحضرية في عهد ابنه. وقد تعرضت ثروة التجار وقوتهم للتهديد من تدفق البنوك والشركات الأجنبية وطبقة المتعهدين الجديدة التي برزت وازدهرت بمساندة الدولة.

ايران والغرب

كان الغرب على مدى فترة طويلة من الزمان يمثل تحديا وخطرا على إيران. وعلى الرغم من أن إيران لم تقع أبدا تحت الحكم المباشر للقوى الاستعمارية، فإن الاتحاد السوفيتي في الشمال والبريطانيين في الجنوب تنافسا على النفوذ. وقد أجبرت مخاطر التدخل الأجنبي والتبعية، التي رمزت إليها الحوادث التي استثارت احتجاج الدخان، رضاشاه على التنازل عن العرش لولده، بل إنه كان أكثر وضوحا في سنة ١٩٥٣م، عندما طرد الشاه إلى المنفى على يد حركة وطنية قادها رئيس الوزراء محمد مصدق الذي أدى تأميمه بترول إيران إلى تهديد مصالح شركات البترول الغربية. وكانت عودة الشاه من روما إلى طهران، على متن طائرة عسكرية أمريكية وإلى جانبه رئيس هيئة المخابرات الأمريكية CIA، قد نظمتها الولايات المتحدة بدعم بريطاني. وتزايدت روابط إيران السياسية والعسكرية والاقتصادية مع الغرب، ومع الولايات المتحدة خاصة، تزايداً مهماً. وقد أفادت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا

من مبيعات الأسلحة الوفيرة، كما ساعدت على تدريب القوات المسلحة الإيرانية وجهازها السري (السافاك). وفي وقت كانت فيه الولايات المتحدة متورطة بشدة في فيتنام، على حين كان البريطانيون يسحبون قواتهم من الخليج الفارسي، كانت سياسات شاه إيران المطروحة ومصالحها قد توافقت مع مصالح الولايات المتحدة من رفض الشاه للناصرية، وعلاقاته البراجماتية مع إسرائيل، ووجود دولته المستقرة في الخليج (الفارسي)، إلى ثروتها البترولية وسوقها المفتوحة أمام المنتجات الأمريكية. وكان رجال البنوك ورجال الأعمال وكذلك الدبلوماسيون والمستشارون العسكريون الأمريكيون والأوروبيون يتمتعون بحضور قوي للغاية في إيران. وبحلول أواخر الستينيات «كانت السياسة الداعمة لبهلوي والتأييد له تحكم أعلى المستويات في مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية».

بدأ السخط ينمو وينتشر في قاعدة اجتماعية أوسع في أوائل السبعينيات. ولم يكن الاهتمام بالتدخل الأجنبي والاعتماد على الغرب قاصرا على الطبقات التقليدية، ولكنه استحوذ على جيل من الإيرانيين ذوي التعليم الحديث، والحنكة السياسية، والعقلية الاجتماعية. وانضم الوطنيون من أبناء الطبقة المتوسطة والمثقفين إلى التجار ورجال الدين في الإفصاح عن اهتمامهم بالهوية الوطنية لإيران واستقلالها الوطني. وتزايدت دعوات الإصلاح الاجتماعي والسياسي وسط الشكاوى من تركيز الثروة، والفساد، والقهر السياسي المتصاعد، والاعتماد المتزايد على الغرب.

القمع والمعارضة

بحلول السبعينيات لم يعد الشاه الشاب هو غير المجرب الذي أجلسته القوى

الأجنبية على عرش الطاووس، ولكنه صار حاكما راسخا ذا نزعة استبدادية متصاعدة. وعلى نحو ما علق جيمس بيل، فإن سياسته «في التقريب والإجبار، والقمع والإصلاح» تخلت عن مكانها «لجنون العظمة المتزايدة» وكان احتفال أكتوبر سنة ١٩٧١م بالذكرى الألفين وخمسمائة للملكية الفارسية نقطة فارقة ذات مغزى، إنها وضعت في الحال علامة على الذروة وعلى بداية تدهور أحوال الأسرة البلهوية. إذ تم إنفاق ما يزيد على مائتي مليون دولار لجمع المرموقين من أركان الدنيا في مدينة برسبوليس، عاصمة فارس قبل الإسلام الخالية من السكان، حيث قام الشاهنشاه (ملك الملوك) بوضع نفسه على قدم المساواة مع الملك الفارسي كوروش ملك الملوك. وقد جسد الاحتفال الذي استمر أسبوعا، على شكل وليمة كان الطعام فيها من مطعم مكسيم في باريس، بما في ذلك خمسة وعشرون ألف قنينة من الخمر، عدم حساسية الشاه تجاه منتقديه وتجاه هوية إيران وتقاليدها الإسلامية. وامتزجت مظاهر البذخ والتبذير الملكية بالاحتفال ذي الطابع الغربي في موقع يعود إلى ماقبل الإسلام. ومن ثم، كان القمع الدموي لمظاهرات الطلاب تجسيداً لسياسة جديدة لا تتسامح إزاء معارضة قليلة «ونتج عنها عصر من الرعب».

كان الإصلاحيون الإيرانيون، المعارضة ضد الحكومة، يمثلون كافة قطاعات المجتمع: قوميون ويساريون، علمانيون ودينيون، نخب تقليدية (من التجار ورجال الدين)، ونخب حديثة. وكان الناقدون لاعتماد إيران على الغرب عسكريا واقتصاديا وسياسيا يخشون الانحراف الثقافي الذي سوف ينتج عن تغريب التعليم والمجتمع الإيراني، إذ إن مسائل الهوية الوطنية، والنفوذ الغربي، والعدالة الاجتماعية والمشاركة السياسية، كانت تتقاطع مع الحدود الاجتماعية والأيديولوجية، وتناولها بالتفصيل ناقدون علمانيون ورجال دين

على السواء. ومن أكثرهم تأثيرا كان جلال - آل - أحمد ومهدي بازرجان و دكتور علي شريعتي، وآية الله خميني، وقد أثرت أفكارهم وزعامتهم على جيل من الطلاب، والمثقفين، والمهنيين (علماء، ومهندسين، وصحفيين) ينتمون إلى الطبقة الوسطى التقليدية والحديثة على السواء. وكان للطلاب والمهنيين ذوي التوجه الإسلامي أن ينضموا إلى رجال الدين، ورجال المدارس الدينية، والتجار البازاري في حركة المعارضة الواسعة التي أطاحت بالشاه.

عبر جلال - آل - أحمد، الذي كان علمانيا واشتراكيا «ثم التحق بالاسلاميين»، عن مخاوف الكثيرين من أن الإصلاحات التعليمية والاجتماعية الحديثة كانت تؤدي إلى عملية إغراء بالذوبان الثقافي، «الصدمة الغربية» التي كانت تهدد بأن تسلب إيران، وجيل الشباب خاصة، إحساسه بالهوية الوطنية: «نحن نشبه أمة تغربَّت عن نفسها، في ملابسنا وفي منازلنا، وفي طعامنا وأدبنا، وفي منشوراتنا، والأخطر من ذلك كله، تعليمنا. نحن ننفذ التدريب الغربي، ونحن ننفذ التفكير الغربي، ونحن نتبع المنتجين».

ولم يكن جلال - آل - أحمد يرى عالما مبسطا من كتلة واحدة، أو اختيارات نمطية، ولا حتى طريقا لتحديث - تغريب المجتمع أو التقهقر إلى الماضي. وقد اختار بديلا ثالثا، هو الرجوع إلى الثقافة الإيرانية الإسلامية باعتبارها مصدراً للهوية الوطنية والوحدة والتاريخ والقيم الوطنية. كان اتهامه للتغريب موقفاً فكرياً علمانياً تزامن، مع الدعوة إلى استمرار هوية إيران وثقافتها الحديثة مع ماضيها، وكان يمثل أجندة أولية للآخرين أيضا، العلمانيين ذوي الميول الدينية والمنظرين الدينيين، وعلمانيين (اسلاميين) من أمثال مهدي بازرجان وعلي شريعتي، ورجال دين مثل آية الله الخميني.

في سنة ١٩٦٢ ، السنة التي نشر فيها كتاب جلال (آل) أحمد (خدمت و

خيانت غربزدكان) و هو نقد التغريب، قام مهدي بازرجان (ولد سنة ١٩٠٧م) بإعطاء محاضرة عنوانها: «الحد بين الشؤون الدينية والشؤون الاجتماعية» عن العلاقة بين الدين والسياسة. وكان بازرجان، وهو مهندس تلقى تدريبه في فرنسا و ذو التزام إسلامي قوي، قد سجن في سنة ١٩٣٩ م لمعارضته لرضا شاه ثم سجن ثانية من ١٩٦٢- ١٩٦٩م لمعارضته محمد رضاشاه. وكان ناشطا في الجبهة الوطنية بزعامة رئيس الوزراء مصدق، كما قضى على حركة تحرير إيران لردم الفجوة بين الإيرانيين العلمانيين المحدثين والإيرانيين الدينيين التقليديين وعمل في سبيل دولة ومجتمع أكثر إسلامية. في سنة ١٩٧٩، وبموافقة الخميني، صار ر ئيس الوزراء المؤقت في جمهورية إيران الإسلامية(٩).

وقد أدان شريعتي، مثل جلال - آل - أحمد، شرور التأثير الغربي: «هيا أيها الأصدقاء دعونا نهجر أوربا، دعونا نوقف هذا الغثيان، ونتخلى عن تقليد أوربا. هيا بنا نترك وراءنا أوربا هذه التي تتحدث دوما عن الإنسانية ولكنها تدمر بني الإنسان حيثما وجدتهم». وقد مزج شريعتي بين إدانة الإمبرالية الغربية ونوع من الاشتراكية الإسلامية. كان الهدف هو الهوية الوطنية والوحدة الوطنية والعدالة الاجتماعية الاقتصادية لإيران المقهورة سياسيا والمستغلة اقتصاديا، والتي تمسك بها «الإمبرالية العالمية، بما فيها الشركات متعددة الجنسيات والإمبريالية الثقافية، والعنصرية، والاستغلال الطبقي، والقهر الطبقي، والظلم الطبقي والتغريب (غربزدكي).

فإن آية الله الخميني (١٩٠٢- ١٩٨٩م) كان رمز الثورة الاسلامية الايرانية الحي ومهندسها. فإن سياساته الجوالة، وشخصيته الكارزمية، بالإضافة إلى سلسلة من الظروف قذفت به إلى زعامة الثورة، ومن ثم، زعامة جمهورية إيران الإسلامية. فبينما ظل غالبية العلماء (رجال الدين) في إيران غير مسيسين، صار روح الله

الخميني صوتا عاليا يدعو إلى الإصلاح. وتحدث بنشاط وصراحة ضد سياسة الشاه خلال السنوات من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٣، وتم القبض عليه وسجنه عدة مرات، ثم نفي إلى تركيا، والعراق، وأخيرا إلى محطته الأخيرة في فرنسا. وطوال فترة منفاه استمر الخميني في نقد الشاه. وكانت نسخ من كتاباته وأحاديثه فضلا عن شرائط الكاسيت يتم تهريبها إلى إيران ويتم توزيعها من خلال شبكة المساجد.

كان الخميني يشارك المنظرين الإسلاميين الآخرين، من أمثال مولانا المودودي في «جماعتي إسلام» وحسن البنا في «الإخوان المسلمين»، في رؤية شاملة للإسلام:

«إن للإسلام نظاما وبرنامجا لكل الشؤون المختلفة للمجتمع: شكل الحكومة والإدارة، تنظيم معاملات الناس فيما بينهم، العلاقة بين الدولة والشعب، العلاقات مع الدول الأجنبية وكافة الشؤون السياسية والاقتصادية.. لقد كان المسجد دائما مركز القيادة والتوجيه ومركزاً لبحث المشكلات الاجتماعية وتحليلها»(١٠).

وقد شارك أيضا في نظرة استقطابية للعالم، عالم ممزق ما بين الشرق والغرب، ومواجهة عالمية إسلامية للغرب الصليبي. وبالنسبة للخميني كان العالم منقسما إلى مجموعتين : الظالمون (الولايات المتحدة والغرب عموما وكذلك الاتحاد السوفيتي) والمظلومون (المسلمون والعالم الثالث) وكان ينظر إلى معظم حكومات العالم المسلم والعالم الثالث عموما على أنها دول عميلة، خادمة للغرب والشرق، ومن ثم كان شعار الثورة «لا الشرق ولا الغرب، الإسلام فقط». وكانت رؤية الخميني للعالم ملونة بشكل خاص بكراهيته للاستعمار والإمبريالية الغربية «إن مخالب الإمبرالية الشريرة قد انغرسبت في قلب أرض

شعب القرآن، والتهمت الإمبرالية ثروتنا ومواردنا الوطنية.. مع تغلغل الثقافة الإمبريالية إلى أعماق المدن والقرى في شتى أنحاء العالم الإسلامي، لكي تحل محل ثقافة القرآن». أما علاقة إيران بإسرائيل التي اعتبرها موقعا استعماريا أمريكيا، فقد تعرضت لهجوم موجع:

«إن التأثير المنحوس للإمبريالية يتضح بشكل خاص في إيران، إذ إن إسرائيل المعروفة عالميا بأنها عدو الإسلام والمسلمين، والمشتبكة في حرب ضد المسلمين على مدى سنوات، قد تغلغلت إلى كافة الشؤون الاقتصادية والعسكرية والسياسية للبلاد، بمساعدة حكومة إيران الحقيرة، ويجب القول بأن إيران قد صارت قاعدة عسكرية لإسرائيل، وهي ما يعني بالتالي أنها قاعدة لأمريكا».

بحلول السبعينيات كانت مطالب الخميني الأصلية بالإصلاح قد تحولت إلى دعوة ثورية للجهاد. وأدان الملكية في إيران بأنها غير شرعية ومعادية للإسلام ونادى بحكومة يرشدها رجال الدين، إن لم يحكموها. وفي سلسلة من المحاضرات كان عنوانها الكلي «الحكومة الإسلامية» لم تكن معروفة على نطاق واسع في زمانه، رفض الخميني الملكية باعتبارها غير إسلامية وأصر على القول بأن الخاصية الإسلامية للحكومة تتحدد بحكم الشرعية، وطالب بإعادة فرضها في مكان القوانين الوضعية الأجنبية التي تبنتها إيران. واذا سلمنا بمركزية الشريعة، كما قال الخميني في جداله، فإن العلماء قد لعبوا دورا ضروريا في نصح الحكام الدنيويين والإشراف عليهم، بل إنه ألمح إلى إمكانية حكم رجال الدين المباشر.

ولم تكن آراء الخميني عن الحكومة الإسلامية معروفة على نطاق واسع أو مفهومة، وكان يمكن أن تظل مجرد اجتهادات أكاديمية لو لم يتدهور

الموقف السياسي في إيران بهذه السرعة، إذ إن سياسة الشاه القمعية التي قامت بسحق أي، وكل أشكال المعارضة والتي أدت إلى عمليات الاعتقال والسجن والتعذيب والموت العشوائية للكثيرين على أيدي رجال الشرطة السرية، خلقت الشهداء، وحركت دائرة من عنف النظام والعنف المعادي للنظام، واستفزت نموا سريعا لحركة مقاومة ذات قاعدة عريضة. وفي خضم عمليات القمع واسعة النطاق ضد المثقفين والصحفيين والسياسيين، والوطنيين الليبراليين، والاشتراكيين والماركسيين، فإن الخميني بإدانته اللاذعة للشاه ودعوته لنظام سياسي جديد يتضمن حكومة دستورية وإصلاحا اجتماعيا اقتصاديا، صار رمزا للمعارضة ومركزا لها.

ثورة إيران الإسلامية

وبينما كانت المعارضة تتصاعد داخل إيران، فإن تراث إيران الشيعي قدم مجموعة مشتركة من الرموز، وهوية تاريخية، ونظام قيم - بديلا وطنيا غير غربي وإطارا أيديولوجيا يمكن أن تعمل من داخله عدة فئات مختلفة. وكانت شبكة المساجد التي يسيطر عليها الملالي بمثابة القيادة والعمود الفقري التنظيمي للمعارضة ضد الحكومة، إذا إن آلاف المساجد في إيران، المنتشرة خلال كل مدينة وقرية، وفرت شبكة اتصالات طبيعية غير رسمية تغطي جميع أنحاء الوطن، ومثلما حدث في احتجاج الدخان والثورة الدستورية استخدمت المساجد لتكون مراكز للمعارضة، والتنظيم السياسي، والتحريض وأماكن للإيواء. وكان بوسع الحكومة أن تمنع الاجتماعات السياسية وتحد منها، ولكنها لم تكن بقادرة على إغلاق المساجد أو منع الصلاة. وكان رجال الدين وتلاميذهم بمثابة احتياطي ضخم لتفريخ القيادات، ففي صلاة الجمعة

كانت المساجد والخطب التي تلقى فيها تتحول إلى ساحة وحدث سياسي ديني، وتجتذب الآلاف وغالبا ما تنتج عنها مظاهرات سياسية عندما يبدأ المؤمنون مغادرة المساجد في الطريق إلى منازلهم. وارتبط تأثير رجال الدين بتأثير المصلحين الإسلاميين من غير رجال الدين مثل شريعتي وبازرجان، ممن تمتعوا باحترام الكثيرين خاصة بين صفوف جيل شاب جديد مناضل مستبعد.

ومن الناحية التاريخية، فإن المذهب الشيعي كان ثوريا وتأمليا. وفي القرون الأولى من التاريخ الإسلامي، وكانت الحركات الشيعية من عوامل سقوط الخلافة الأموية. وعلى أية حال، فإن الشطر الأكبر من المذهب الشيعي استقر فيما بعد على نوع من التأمل غير السياسي، الذي فرضته عقيدة تؤمن بعودة الإمام الثاني عشر. وهكذا، فإن المذهب الشيعي ، مثل كافة الموروثات الدينية، كان قادرا على القيام بتفسيرات متعددة. ففي إيران في أثناء السبعينيات، انتقل المذهب الشيعي من التأملية الساكنة إلى النشاط الثوري.

وقد اتخذت حادثة استشهاد الحسين في كربلاء أمام جيش الخليفة (الأموي) يزيد (بن معاوية) سنة ٦٨٠م، وهي الحادثة الجوهرية في التاريخ الشيعي، أهمية خاصة، لأنها قدمت نموذجا ملهما للثورة الإيرانية، إذ كان استشهاد الحسين رمزا على دور المذهب الشيعي بوصفه حركة احتجاج ناضل ضد قوى الشر المهيمنة، وكان رمزا للمعركة بين الخير والشر، وقوات الله وقوات الشيطان، والمظلوم والظالم، وثورة المحرومين.وبالنسبة لكثيرين من الشيعة كان الشاه وقواته المسلحة المهيمنة، مثل جيش يزيد، يمثلون شرور الفساد والظلم الاجتماعي. ومثل الحسين وقواته، فإن الأبرار كان لهم حق ديني وعليهم واجب ديني للثورة ضد يزيد هذا الزمان، وشنٍّ حرب مقدسة

لإعادة شريعة الله والعدالة الاجتماعية. فالتضحية بالذات بل والموت في سبيل الله كان لابد من قبولها بحرية، لأن الموت في سبيل الله كان يعني أن يصير المرء شهيدا ويفوز بالجائزة الخالدة(١١).

وبينما تصاعدت الاحتجاجات والمظاهرات السياسية في ١٩٧٨، تصاعدت أيضا إجراءات القمع التي مارستها الدولة. وصلت الأحداث إلى ذورتها في طهران يوم الجمعة الأسود ٨ سبتمبر، إذ إن القوات المسلحة والشرطة حينما عجزت عن فض إحدى المظاهرات فتحت النيران على حشد من خمسة وسبعين ألف متظاهر من طائرات الهيليكوبتر والدبابات التي، لن ينسى كثيرون، تم شراؤها من الغرب وكان يقودها عسكريون إيرانيون تم تدريبهم في الغرب. كان يوم الجمعة الأسود نقطة فارقة في الثورة: ذلك أن العمال من أصحاب الياقات البيضاء والزرقاء، والطبقات الوسطى التقليدية والحديثة، وسكان المدن وفلاحو الريف، انضموا إلى صفوف المعارضة وانغمسوا في العمل السياسي. أما النساء اللاتي كن يرتدين الملابس الحديثة فقد انضموا آنذاك إلى قريناتهن الأكثر تقليدية في ارتداء الحجاب رمزاً للاحتجاج ضد الملك الذي كان برنامجه التحديثي قد حاول ذات مرة منع الحجاب.

وفي ديسمبر، خلال شهر المحرم المقدس الذي يتم فيه إحياء ذكرى استشهاد الحسين، تم صهر الرموز والطقوس الإسلامية مع الحقائق السياسية المعاصرة عندما تحولت المواكب الدينية إلى مظاهرات احتجاج، إذ نادى حوالي مليونين من البشر في طهران إلى خلع الشاه وطالبوا بموته، كما طالبوا بإنشاء حكومة إسلامية، والعودة إلى قيادة الخميني. وفي ٦ يناير سنة ١٩٧٩، غادر الشاه إيران بعد أن تلقى لطمة تمثلت في الاحتجاج والعنف الواسع المدى، وبعد أن أدرك أنه لم يعد قادرا على الاعتماد على العسكريين الذين كان

جـنودهم يتناقصـون، وبعدمـا رأى أن حُماتــه الأمريكييــن يتقاعســون عــن تأييده[١٢].

تصدير الثورة

كانـت عمليـة تأسـيس الـثورة مصـحوبة بهـدف تـوأم، هـو تصـدير الـثورة الإسـلامية. وقـد حكـم الخـوف مـن تصدير الثورة معظم سياسات الشرق الأوسط علـى مـدى أكـثر من عشر سنوات كما كان له تأثير مهم على كل من العالم الإسلامي والغرب:

«بالنسـبة للـبعض، كانـت إيـران الـثورية مصـدراً لـلإلهام والدفـع، وبالنسـبة للبعض الآخر، كانت رمزا لتهديد مشؤوم لاستقرار الشرق الأوسط وأمن الغرب؛ لأنهـا ارتبطـت بالإرهـاب، واحـتجاز الرهائـن، والهجـوم علـى السـفارات، وتطويـر النشـاطات الـثورية. والواقـع أن إيـران كانـت تـبدو بالنسبة لإدارة ريجان، مرادفا للإرهاب العالمي والثورة».

وفـي غمار الهيستريا التي سادت فترة مابعد نجاح الثورة كان تقييم التهديد الإيرانـي، وفصـل الحقـيقة عـن الخيال، أمـراً بـالغ الصـعوبة إن لـم يكن مسـتحيلا بالنسبة للغرب وحلفائه، إذ نتج عن صدمة الثورة التي جعلت مما لا يخطر على الـبال حقـيقة واقعـة، نوعـاً من التعويض الزائد، رأى السياسات الإيرانية الداخلية والخارجـية على السواء من خلال منظار الأصولية الإسلامية والتطرف الإسلامي. وكانـت عملـية الأسـلمة الصـارمة فـي الداخل قد استكملت. إذ كان الخوف من نمـاذج أخـرى مـثل إيـران ومن محاولة أصولية لنشر الثورة، ليس فقط في العالم المسـلم وإنمـا أيضـا فـي أنحاء العالم الثالث، يتغذى بالبلاغة العامة والدعاية التي تبُثّها جمهورية الخميني الإسلامية.

لقد انبثق تصدير الإسلام الثوري من رؤية آية الله الخميني الأيديولوجية العالمية، وهي تفسير للإسلام يمزج بين قومية إيران ذات الجذور الدينية والإيمان بالسمة العالمية لمهمة المسلمين الكونية في نشر الإسلام من خلال الدعوة والأسوة الحسنة، ومن خلال الثورة المسلحة أيضا. كان الترويج للإسلام ونشره من الأهداف الأساسية للسياسة الخارجية، وقد انعكس ذلك في ديباجة دستور جمهورية إيران الإسلامية «مواصلة الثورة في الوطن وفي الخارج» كان الخميني يوصي بالوسائل السلمية مثل الدعوة والدعاية.

اختلف تأثير إيران الثوري على البلاد المسلمة الأخرى (من بلد لآخر) اختلافاً بينا. وعلى الرغم من أن التأثير الإيراني غالبا ماكان غير مباشر، فإنه غالبا ماكان محل مبالغة بسبب التغطية الإعلامية غير المناسبة، وكذلك بسبب اتجاه الحكومات المسلمة (مصر، السودان، إندونيسيا، تونس، العراق) إلى استخدام التهديد الإيراني ذريعة للإساءة إلى المعارضة الإسلامية المحلية وقمعها ووسيلة لتشجيع المساعدة من الحكومات الغربية[١٣].

وعلى الرغم من الاختلافات بين البراجماتيين والراديكاليين فإن وفاة الخميني في يونيو ١٩٨٩ لم تؤد إلى صراع كارثي على السلطة بينهما، إذ إنهم وحدوا الصفوف لضمان انتقال سلس للسلطة يحبط آمال أعدائهم. وبرز كل من هاشمي رفسنجاني وآية الله خامنئي لاعبين رئيسيين، وتم انتخاب رفسنجاني رئيسا جديدا لجمهورية إيران، وانتخب مجلس الخبراء ورئيس إيران السابق خامنئي «مرشدا».

وسلكت قيادة إيران الجديدة طريقا أكثر مرونة، وعملت على إعادة البناء الاقتصادي مع تطبيع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع المجتمع الدولي.

كانت إيران متهمة بتأييد الأنظمة الدينية المتشددة (مثل السودان) التي

تأوي وتدرب الإرهابيين والمنظمات المناضلة مثل حزب الله في لبنان وحماس في إسرائيل، واغتيال الإيرانيين في الخارج. في الولايات المتحدة أدانت إدارة كلينتون إيران بمساندة الإرهاب، ومتابعة برنامج أسلحة نووية سري، وانتهاك حقوق الإنسان، ومعارضة عملية السلام في الشرق الأوسط. وإذا كانت إدارة كلينتون ترى إيران والعراق قوتين تزعزعان الاستقرار في الشرق - تهديداً لدول الخليج (الفارسي) المنتجة للبترول وإسرائيل - فإنها صاغت سياسة ثنائية المحتوى تضمنت عقوبات اقتصادية لعزل إيران والعراق سياسيا واقتصاديا. ومرر الكونجرس الذي تحكمه أغلبية جمهورية تشريعا لتمويل زعزعة استقرار حكومة إيران الإسلامية.

كانت سياسة إيران الإسلامية الخارجية براجماتية أكثر من كونها أيديولوجية، توجهها المصالح الوطنية أكثر من الأيديولوجية الدينية. وعلى الرغم من أنها استمرت في علاقاتها الحميمة مع جمهورية السودان الإسلامية، فإنها تباعدت عن جمهورية أفغانستان الإسلامية، إذ إن الطالبان في افغانستان، ميليشيا الطلاب (طالبان) الإسلامية التي كانت قد استولت على أكثر من ثلثي أراضي البلاد، قد فرضت بقسوة نوعا متطرفا من مستويات الجمهورية الإسلامية وأعلنت أن الجماعة الشيعية في أفغانستان غير مؤمنين. وفي سنة ١٩٩٧م أدانت إيران الطالبان بسبب سلوكها غير الإسلامي. وعلى الرغم من تأييدها لنضال الناشطين الإسلاميين لخلق دولة إسلامية في الجزائر، فإن إيران أدانت أعمال العنف المجنونة. وقتل الإخوة المسلمين بهذا الشكل الجائر مناف للإسلام، وقامت إيران بمبادرات جديدة لكي تصلح أو تقوي مركزها في الخليج(الفارسي) وفي العالم الإسلامي، ولكي تصلح على وجه الخصوص من العلاقات مع منظمة المؤتمر الإسلامي، ودول مجلس التعاون الخليجي، كما

دعت إلى الوحدة الإسلامية، وقد سعت إيران إلى تقوية روابطها مع منظمة المؤتمر الإسلامي والمملكة العربية السعودية وباقي جيرانها من دول مجلس التعاون الخليجي.

شهدت أواخر التسعينات من القرن العشرين توسعا مهما في المساهمة السياسية والمعارضة، إذ إن سياسات رفسنجاني الأكثر اعتدالا، والمجال الذي خلقته الجماعات المتنافسة ومراكز القوى، وفرت الظروف التي تسامحت مع الاختلافات والتغير الحي داخل حدود الأيديولوجية الإسلامية لإيران. وعلى الرغم من أن عملية انتخاب المرشحين خضعت للسيطرة، فقد استمرت الانتخابات الرئاسية والبرلمانية دونما تدخل وغالبا ماكانت تجري باستقلال نسبي. وانخرط أعضاء البرلمان في مجالات ساخنة حول سياسات الحكومة وخططها المقترحة، وهم يشعرون بحريتهم في توجيه النقد إلى الحكومة، ورفض التعيينات الرئاسية، ومعارضة مبادرات النظام التشريعية. وتزايدت إيقاعات الحياة الثقافية والمجالات، وكذلك نشر الصحف والمجلات والجرائد المستقلة بشكل واضح.

وغالبا ما أظهرت إيران درجة من التنوع السياسي والمشاركة الشعبية كانت تتناقض بحدة مع كثير من جاراتها العربية. وعلى الرغم من الحدود التي فرضت على حريات النساء الإيرانية في الحياة العامة، فإنهن تمتعن بحريات أكثر من تلك التي تمتعت بها أخواتهن في الدول الخليجية، ابتداء من التعليم إلى التصويت في الانتخابات، وتولّي المناصب السياسية وقيادة السيارات. وكانت تظهر بانتظام المناقشات والمحاورات العامة بين الأصوات المحافظة والأصوات الأكثر تحررا أو الأصوات النسائية (دينية وعلمانية) على صفحات المجلات والكتب.

ربما كان أكثر الأمثلة روعة على التيارات المتنوعة في إيران - اعتدالها وتعدديتها المتزايدة على الرغم من محدوديتها - هو الذي قدمته الانتخابات الرئاسية سنة ١٩٩٧م.

كان السيد محمد خاتمي يتمتع بأوراق اعتماد ثورية قوية باعتباره واحدا من أوائل المؤيدين لثورة إيران، إذ كان ابن واحد من أكثر آيات الله تبجيلا في إيران، كما كان سيدا (أي من سلالة الرسول محمد (ص)، كذلك كان له سجل من الاعتدال السياسي. وكانت تأكيدات خاتمي على قدر أكبر من الحريات الفردية والجماعية، وحكم الشريعة والتسامح السياسي، واحترام إرادة الشعب سببا في حنق المحافظين، الذين رأوا فيه تهديدا لسلطة المرشد الأعلى، أو الفقيه (آية الله خامنئي)، الذي كان فوق الدستور والإرادة الشعبية. ولم يتوقع الكثيرون أن تتم الموافقة على ترشيح خاتمي، طالما أنه كان معروفا للكافة أن ناطق نوري هو المفضل لدى خامنئي. وفي نصر رائع في ٢٣ مايو سنة ١٩٩٧م فاز خاتمي بنسبة ٦٩ بالمائة من الأصوات التي أدلى بها ٦٧ في المائة ممن لهم حق التصويت. وأوضح انتصاره جاذبية عريضة القاعدة، طالما أنه كسب الدعم من الطبقات الوسطى العليا، من الشباب والنساء الإيرانيات، من المثقفين والمهنيين، والفنانين الذين فضلوا رسالة خاتمي المعتدلة التحررية على رسالة ناطق نوري المحافظة، وقد اشترك الناخبون في أمر عام واحد - هو الرغبة في مزيد من التحرر والتغيير وطلب مزيد من المساحة السياسية والثقافية في المجتمع(١٤).

وفي غمرة انتخابات إيران وصحوتها، وضعت الولايات المتحدة شروطا مسبقة لتطبيع العلاقات: أنه ينبغي على إيران أن توقف دعمها للإرهاب ، وأن تتوقف عن تطوير الأسلحة النووية، وأن تسقط معارضتها لعملية السلام في

الشرق الأوسط.

وردت إيران بأن جماعات مثل حماس وحزب الله (التي تعتبرها الولايات المتحدة إرهابية ولكن إيران تدعمها) هي جماعات حرب عصابات تحارب الاحتلال الإسرائيلي غير المشروع للأراضي الإسلامية (فلسطين وجنوب لبنان). وطالبت بأن تقدم الولايات المتحدة الخطوة الأولى لإبداء حسن النوايا بالإفراج عن بلايين الدولارات من الأصول الإيرانية التي كانت قد تجمدت منذ ثورة ١٩٧٩م. ولقيت حركة السعي لإعادة العلاقات بين إيران والولايات المتحدة معارضة ليس فقط من جانب القوى داخل إيران، وإنما أيضا من جانب كثيرين في الكونجرس بالولايات المتحدة. وذلك أن تراث عشرين سنة من التصوير المتبادل للآخر على أنه شيطان أثبت أنه عقبة أكبر من أن تتغير. ومع ذلك، ففي مقابلة تليفزيونية مع محطة CNN، انتهز خاتمي الفرصة، على الرغم من أنه لم ينكر شكاوى إيران التاريخية، واعترف بالجذور والقيم الدينية للولايات المتحدة، وحذر من مخاطر الصدام بين الحضارات، ونادى بحوار بين الحضارات والأديان(١٥).

وحقائق الاستعمار والإمبريالية، التي نسيها الكثيرون في الغرب أو تجاهلوها عامدين، هي جزء من التراث الحي مهما طالته المبالغة أحياناً، المزروع بقوة في ذاكرة الكثيرين في العالم المسلم. ومثلما أوضحت الثورة الإيرانية، فإن عشرات السنين التي مضت لم تستطع محو ذكريات الإهانة والتدخل: مثل الترحيب بغزو الاتحاد السوفيتي لإيران المحايدة سنة ١٩٤١، وإرغام البريطانيين والسوفييت رضا شاه على أن يخلع نفسه من العرش لصالح ابنه محمد رضا بهلوي شاه، وتدخل الولايات المتحدة في سياسات إيران أوائل الخمسينيات، والإطاحة برئيس الوزراء المنتخب ديمقراطيا، مصدَّق، بعد أن شنت عليه

وسائل الإعلام حملة تتهمه بموالاة الشيوعية، وأعيد الشاه من منفاه بإيطاليا إلى طهران، وهو عمل كُرِّس لخدمة مصالح بريطانيا الإمبرالية. وفي السنوات الأخيرة، كانت ذكريات القرون من الهيمنة الغربية، التي تلتها التبعية المستمرة للغرب، قد تركت جروحاً وخلَّفت استياءً صارت أعذاراً سهلة لتبرير الإخفاقات الاجتماعية ومواد استهلاكية في سياسات الدول المسلمة. وإذا كان هناك تهديد إسلامي، فإن كثيرين من العرب والمسلمين يعتقدون أن هناك أيضا تهديداً غربياً - من الإمبريالية السياسية والاقتصادية والدينية الثقافية، واحتلال سياسي مصحوب بغزو ثقافي. ونتيجة لهذا يختار الكثيرون في العالم المسلم، مثل نظرائهم في الغرب، الشعارات السهلة المعادية للإمبريالية وتصويرها في صورة الشيطان. وتمثلت أسوأ الظروف في اندماج كل من الطرفين في عملية «متبادلة لتصوير الآخر في صورة الشيطان».

والخوف من الإسلام ليس جديداً. والميل إلى الحكم على تصرفات المسلمين بشكل مبتسر، وإلى تعميم أعمال القلة على الكثرة، وغض النظر عن التجاوزات المماثلة التي ترتكب باسم ديانات أخرى وأيديولوجيات أخرى (بما في ذلك الحرية والديمقراطية)، كل هذا ليس جديداً أيضا.

ويبدو أحيانا أن موقف الغرب تجاه الشيوعية قد تم نقله أو نسخه لإظهار تهديد جديد «الأصولية الإسلامية». ففي التسعينيات، عبَّرت حكومات كثيرة في العالم المسلم، وإسرائيل والغرب عن هذا الاستقطاب، كما عبرت عنه وسائل الإعلام وكثيرون من المحللين السياسيين، عندما استنتجوا، دون النظر إلى تنوع واختلاف التنظيمات الإسلامية والسياقات الاجتماعية الخاصة، أن «الأصولية الإسلامية» تشكل تهديداً عالمياً كبيراً.

وإذ أدركت حكومات كثيرة في العالم المسلم ميل الغرب إلى رؤية الإسلام

باعتباره خطراً، استغلت خطر الراديكالية أو الإرهاب الإسلامي (وقد ساوت بين الأصولية الإسلامية والنزعة الإسلامية والإسلام السياسي) ليكون عذراً لها في السيطرة على الحركات الإسلامية أو قمعها. وضخمت هذه الحكومات المخاوف من راديكالية إسلامية متحجرة في الداخل وفي الغرب على السواء. تماماً مثلما كان الكثيرون في الماضي يستغلون مقاومة الشيوعية عذراً لتبرير الحكم الاستبدادي ولكسب تأييد القوى الغربية. ويتم تبرير خطر التنظيمات الإسلامية، وسجن الناشطين، وانتهاك حقوق الإنسان بنفس العذر: «إننا نواجه شباباً متعصبين يهددون مستقبلنا». وقد استغل الدبلوماسيون العرب التابعون لبلاد تربطها علاقات قوية مع الغرب الأنماط الغربية الشائعة عن حركة إسلامية أصولية متحدة على نطاق العالم، لكي يعلنوا: «الأصولية عالمية في مداها. فلها فروع في كل مكان .. والمد الأصولي سرعان ما سيتهدد الدول الصناعية عندما يتزعزع الاستقرار في معظم البلاد العربية» . وقد وجدت اهتمامات بعض الحكومات العربية والمسلمة حليفاً جاهزاً في قادة إسرائيل، بغض النظر عن الاختلافات بينهم، إذ إن رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين قال: إن «العالم العربي، والعالم عموما، سوف يدفع الثمن إذا لم يتم وقف سرطان الإسلام الأصولي المتشدد في أكاديمية الخميني وأتباعه في إيران» . وقد طرحت آراء مماثلة من جانب زعماء الصرب في البوسنة وكوسوفو ومن جانب الروس في غمار حربهم ضد الشيشان[١٦].

الهوامش:

١ - التهديد الاسلامي - خرافة ام حقيقة - جون ل. اسبوزيتو، ترجمة ». قاسم عبد قاسم ص ٢٨.

٢ - المصدر السابق ، ص ٣٢.

٣ - المصدر السابق، ص ٣٣.

٤ - المصدر السابق، ص ٣٥.

٥ - المصدر نفسه ص ٣٩.

٦ - المصدر نفسه، ص ٤٣.

٧ - المصدر نفسه ص ٤٥

٨ - المصدر نفسه، ص ٥٠.

٩ - المصدر نفسه من ص ١٥٢ الى ص (١٠).

١٠ - المصدر نفسه ، ص ١٦٠.

١١ - المصدر نفسه، ص ١٦١، ص ١٦٤.

١٢ - المصدر نفسه، ص ١٦٥.

١٣ - المصدر نفسه، ص ١٦٨، ص١٦٩ و ص ١٧٠ .

١٤ - المصدر نفسه من ص ١٧٢ الى ص ١٧٥.

١٥ - المصدر نفسه، ص ١٧٧.

١٦ - المصدر نفسه ، ص ٢٩٨ و ص ٢٩٩.